obeikan.com

رقصة مع الرومي

الطبعة الأولى
الكتاب: رقصة مع الرومي
المؤلف: رحمة ضياء
تصنيف الكتاب: قصص
وقم الإيداع : ٢٠١٧/١١٨١٧
الترقيم الدولي: ٥-١٩-٦٦٠٥-٩٧٧-٩٧٨

obeikan.com

رحمة ضياء

رقصة مع الرومي

قصص

دلتا للنشر و التوزيع

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى الحياة التي كلما سئمناها منحتنا مَدَدًا من السحر؛ لنُكمل الطريق

obeikan.com

obeikan.com

«أم كلثوم» تبيع مناديلها في المترو

وصلتُ لاهثةً إلى رصيف المترو، حشرتُ نفسي داخل علبة السردين قبل ثوانٍ من إغلاقها، ترجرجت بداخلها حتى اصطدمت بعمود تشبثت به بيد، وبحثت بالأخرى عن «الهاند فري» داخل حقيبتي، لأطير فوق منديل «أم كلثوم»، بعيدًا عن رائحة العفونة وضوضاء الباعة والشحاذين.

رفعتُ صوت الموسيقى؛ حتى تبخّر عرض الكحل الذي يُرسَم فوق العين وتحت العين، ولعبة حمادة وميادة، وقصة الشحاذة التي تجمع ثمن الثلاجة والبوتاجاز لتزويج ابنتها منذ أكثر من خمس سنوات! وبقي من أصحابهم عيون متعبة وأخرى حزينة وثالثة أعياها الملل، فكرت أن أروِّح عنهم وآخذهم معي إلى حفل «الست»، لن أستبقيهم طويلًا، محطات معدودة، وأغادر فيعودون لأعمالهم.

تقافز بائع «العسلية» فوق درج حماسه حتى صعد إلى المسرح، وتحولت أعواد العسلية في يده إلى ميكروفون، زفَّ خلاله حفل الليلة إلى الجماهير، وجلست بائعة الطُّرَح في الصف الأول منتفخة زهوًا بعباءتها السمراء وخُفِّها اللذين انقلبا إلى فستان أسود وحذاء لامع، في كرنفال الأضواء الساحرة الذي يقوده بائع الكشافات، الذي تخلى مؤقتًا عن حل مشكلة انقطاع الكهرباء، وتولى مسئولية إضاءة الحفل، فيما أخذ الشحاذ مثقوب الحُنجرة يستعدُّ لدوره مرددًا بصوت جَهْورِيّ: «عظمة على عظمة يا ست»، فسدَّت الجدران آذانها من الضحكات.

بخطى متعجلة ذهبت بائعة الكحل البكماء ذات الشعر البرتقالي، إلى الكواليس؛ لتضبط لـ»أم كلثوم» مكياجها، قبل رفع الستار، فلم تجدها!

لم يكن في حقيبة بائعة المناديل الخمسينية وقت للهو، كان بداخلها المناديل التي تبيعها فقط، عرضت عليها أن تقوم بدور «أم كلثوم» لإنقاذ الحفل؛ فسنها مناسب، ولن نضطر إلى أن نبحث لها عن منديل.

بعد تردُّد، صعدتْ إلى المسرح، فتكسّرت الأيادي من التصفيق، حيّتهم بابتسامتها المعهودة، وقبل أن تبدأ غنوتها صعد شرطي إلى العربة وسحلها على المسرح، حاولتُ إقناعه بتركها تكمل حفلتها فلم أجد لديه آذانًا، كانت نظراتها تتشبث فيّ والشرطي مستمر في جرِّها خلفه، لحقتُ بهما، ووقفتُ أمامه كشجرة تسدُّ الطريق، أسأله هل يعرف من تكون؟ فردَّ بنفاد صبر: «مين؟!»، فقلتُ قبل أن تتخلى عني شجاعتي: «الست أم كلثوم»، اقتلعتني نظراته من ثباتي، وتابع سحلها، مغمغمًا: «يلا بينا يا (ست)»!

جناحٌ للنسيان

مغمضة العينين، تجلس متربعة، تستنشق برودة الأرضية الخشبية، التي لا تكسوها أي قطعة أثاث، فتزفر بعضًا من صهد وكآبة يومها، تسبح في رائحة البخور التي تغمر الغرفة، وتُعبّئ أذنيها بالنغمات الخافتة المنبعثة من سماعات موزعة على الزوايا.

تتكرر الكلمة في ذهنها كببغاء «معقدة.. معقدة.. معقدة»، يجعله صوت نسائي يطير مبتعدًا: «استرخوا، وحرروا ذهنكم من أي فكرة سلبية».

«صعب».. تنطقها بصوت غير مسموع، تتابع مدربة جلسة التأمل تعليماتها: «افتحوا عيونكم، وركزوا في ألوان الستار».

الستار المقسم إلى ألوان الطيف السبعة، استدعى إلى ذهنها زخّات المطر، فابتسمت نصف ابتسامة، ذبلت حين تذكرت من كان يسير معها تحته، فعادت أساريرها للانكماش، لحقتها المدربة من جديد: «ارجعوا لمشهد من طفولتكم، واستمتعوا به من جديد»، رنّ صدى الكلمة في ذهنها بسخرية «استمتعوا»، وقفز أمامها وجه راعد طالما اختبأت منه خلف اللحاف، أغمضت عينيها بشدة وفتحتهما من جديد، فالتقت عيناها بعين المدربة: «حاولي أن تسترخي»، نظرت إليها آسفة.

«الكل يقف، تخيلوا أنكم طيور.. افردوا أجنحتكم وحلّقوا في المكان»، شعرتْ بسخف ما تطلبه المدربة، ظلت واقفةً مكانها تراقب الطيور الحائمة

حولها، اقتربت المدربة منها مرةً ثانية، وسألتها لماذا لا تطير مثلهم؟ ردَّت بأول ما جاء في ذهنها: «معنديش جناح»، فعلقت: «ومعندكيش خيال؟» لَوَت شفتيها، فكررت المدربة المحاولة بلطف: «حسي بأنك خفيفة واتحركي.. اتحرري من قيودك».

بدأت تلفُّ حول نقطة وهمية، وترسم بجسدها دائرة في الغرفة؛ لترضي المدربة.

سمحت لأحبائها فقط بدخول الدائرة، تسللت قطتها أولًا، ولحقت بها كتبها وكتاباتها، تركت باب الدائرة مواربًا لعله ينضم إلى عائلتها الصغيرة، لكن تذكرت أنه رحل ولفظ «المعقدة» من دائرته.

ظلَّت تطوف حول كعبتها مغمضة العينين حتى شعرت بروحها خفيفة، فردت ذراعيها على استحياء، ورفرفت بهما من أسفل إلى أعلى عدة مرات، فيما كانت المدربة تتابعها بعينيها وتبتسم.

خرَّاط البنات

كعادة أمي كلما أزعجها أمر، قطّبت جبينها وضيّقت عينيها، أعرف ماذا تعني هذه النظرة جيدًا، فأسارع لاسترضائها بقبلة لم تكن تصل إلى أعلى من سُرتها، لكنها لم تفشل أبدًا في محو عبوس جبهتها.

حاولتُ أن أكرر خدعة الطفولة اليوم، وقد صرت أوازيها طولًا، حين رأيتها تستعد للمعركة اليومية بشأن دراجتي التي تصر على بيعها لبائع «الروبابيكيا»، لكنها لم تستجب لقبلتي كعادتها.

ظلَّ القلق يأكل من عينيها، لكنها سمحت أن أذهب بها إلى الترزي؛ ليضبط مقاس التنورة التي ابتاعها لي أبي في عيد ميلادي الرابع عشر بإيعاز منها بعد أن أقنعته بالجملة التي ترددها كثيرًا مؤخرًا وتبدأها دومًا بـ«البنت كبرت» وتنهيها بذكر «خرَّاط البنات».

نزلت الدرج مُثقلة بحمولي، أتساءل عن سرِّ رهبة أمي من «خراط البنات»، الذي صار يقيِّد أنفاسي وضحكاتي، ويحدد لي ملابسي، حتى رأيتُ دراجتي الغالية، فطارت من رأسي كل أسئلتي الحائرة.

كنت أدندن بسعادة في طريقي إلى «الترزي» ونسمات الربيع تداعب وجهي: «الدنيا جنينة وإحنا أزهارها فتحنا عينينا على همس طيورها.. مين يقطفنا؟»، قاطع غنائي سائق تاكسي يسير بجواري: «أقول لك من يا حلوة؟»، تجاوزته مسرعة، ولم أُهدّئ من سرعتي حتى وصلت.

انتظرتُ حتى تمهلتْ دقات قلبي، وتركت الدراجة أمام المحل ودلفت، أشرت على الفتى العشريني الجالس أمام ماكينة الخياطة بالمطلوب، فطلب أن أذهب وأرتديها في غرفة القياس.

فعلتُ كما طلب، بعد دقيقتين طرق باب غرفة القياس، فأذنتُ له، دخل وأغلق الباب خلفه، توترتُ ولم أعترض؛ فهناك عدد من الزبائن في الخارج، اقترب وفي يده طبشور يضع به العلامات على الموضع المناسب، وضع عدة علامات قبل أن يتحرك ليصبح خلفي، قال إن التنورة ستحتاج لعدة «كسرات» من الخلف، ازداد توتري وازداد اقترابه، شعرتُ بالشلل لعدة ثوانٍ كانت كافية ليتمادى فيما يفعله.

سألته بصوت متشنج بينما يلتصق بي وأنا ما زلت عاجزة عن الاستيعاب أو الحركة، ماذا يفعل؟ فردَّ ببلاهة متعمدة وهو يبتعد أنه يحدِّد المقاس المضبوط، ثم خرج مسرعًا من الغرفة، وأغلق الباب خلفه.

وقفتُ أرتعش لعدة دقائق، وأنا أحتضن نفسي بذراعي، يجاهد عقلي ليتخلص من التنميل الذي أصابه، ثم نزعتُ التنورة التي ارتديتها فوق بنطالي، وتركتها ملقاةً على الأرض.

فتحتُ الباب، وأنا أركِّز عيني على هدف واحد لا أحيد عنه، أحدثت يدي التي نزلت على وجهه فرقعة عالية أعقبها صمت تام، ثم غادرت غير ملتفتة للوجوه المشدوهة من حولي.

حين وصلتُ إلى المنزل قلت لأمي في حسم: «مش هبيعها»!

دخلت غرفتي وأغلقت بابها، وسمحت عندها لدموعي المحبوسة أن تتحرَّر..

شيشة وأغنية لـ«الست»

بعد انتهاء العمل طلبتْ من صديقها أن يذهبا إلى المقهى المفضل لديها في شارع المعز؛ حيث ترسل همومها مع سحب دخان الشيشة إلى أبعد مسافة ممكنة، ويهطل صوت «الست» من سماعات المقهى، فيصير بوسعها أحيانًا رؤية ألوان قوس قُزح.

نفختْ طويلًا في الجمرات المكتنفة بالرماد، حتى عادت تتوهج من جديد، ابتسمت، وسحبت نفسًا طويلًا من فم الشيشة، وهي تتأمل المجموعات الجالسة من حولهما، فتيات يلتقطن «السيلفي»، شاب يحتضن يده فتاته الغائبة في عينيه.. مؤكد لا يزالان تحت تأثير «حلاوة سلام أول لقا».. هكذا خمّنت، وهي تنظر إليهما مُشفقةً عليهما من الأيام، قبل أن تنتقل بعينها إلى طاولة أخرى جلس حولها مجموعة شباب وفتيات، وجدت إحداهن تتنقل بعينها من ذارع الشيشة في يدها إلى وجهها بازدراء، فابتسمت لها ساخرة، ثم تحولت إلى بقية الطاولات، استوقفها ثنائي آخر يلفُّهما الصمت، يغازل مبسم الشيشة وتولي اهتمامها للهاتف، جلستهما تقول إن «كأس الفراق المر» هو مشروبهما القادم، فيما كانت تصلها ضحكات صاخبة وشتائم بذيئة من مجموعة شباب يجلسون في آخر المقهى، شملت الجميع بنظراتها الساخرة من خلف سحب الدخان، حتى انتبهت إلى «الست» وهي تقول: «وفضلت أفكر في النسيان لما بقى النسيان همي»، فبُهتت السخرية، وحل الحزن مكانها حين تذكرت من توقفت عن تعاطي حبه، لكنه ظل يسري في دمها.

مازحها صديقها: «اشربي اشربي»، ضحكت لثوانٍ قبل أن تعود إلى وجومها.

سألها بلطف: «فيه جديد؟».

فهمت ما يقصده، فهزَّت رأسها نفيًا، لم يضغط عليها، وسألها عن يومها، روت منه لقطات قصيرة.

فَهِم عدم رغبتها في الحديث، فارتدى سريعًا وجه «الأراجوز»، الذي يستعيره كلما شاهدها حزينة، وأخذ يروي لها حكايات طريفة، ويسخر من صور و«بوستات» أصدقاء مشتركين بينهم على «فيس بوك»؛ ليسمع ضحكاتها.

تابعته بنصف ذهن وهي تتناول هاتفها وتكتب في مربع البحث اسم «عمر»، وجدت «استاتيو» كتبه منذ دقائق: «وفضلت أفكر في النسيان لما بقى النسيان همي»، خرجت من الصفحة مسرعة، وكأنه يراها من داخل الشاشة، وعادت لتفحُّص وجوه الجالسين طاولةً طاولةً.

لم تجده، فهدأت دقات قلبها المذعورة قليلًا، دخلت صفحته مرة ثانية لتتأكد مما رأته عيناها، لكنها لم تجد الكلمات، ظلّت تغمض عينيها وتفتحهما.

سألها صديقها مازحًا: «الشيشة سطلتك؟».

نظرت مرة أخيرة إلى الصفحة، فلم تجد أثرًا للكلمات، فردَّت: «تقريبًا».

عادت للتركيز معه بعد اطمئنانها إلى أن «عمر» غير موجود بالمقهى.

***

على بُعد مئات الأمتار كان «عمر» يجلس في منزله يؤنب نفسه على «الاستاتيو» الذي كتبه، ومسحه بعدها بثوانٍ؛ حتى لا تقرأه.

مسافرة دون حقيبة

يحدث ألا يأتي خذلانك في صورة رجل.. لكن حلم حين تحقق بعد طول انتظار تحول إلى كابوس.

وكنتُ أظن أن الاستيقاظ من كوابيس الواقع مستحيل، فحين يتراكم الخذلان فوق ظهرك لا يصير بوسعك الركض ناهيك عن الطيران.. وكنت مخطئة!

فهنا أنا الآن أحلِّق على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم، بعد أن تركت حقائب الخذلان الثقيلة خلفي، تتراءى لي أعمدة معبد «حتشبسوت»، التي تفرد ظهرها في شموخ وعظمة منذ ٣٥٠٠ عام، في حجم وهشاشة أعواد الكبريت.

أطير للمرة الأولى في حياتي داخل بالون مستسلم تمامًا للهواء يأخذه «على حسب الريح ما يودي» فيما يلوح الشروق في الأفق.

بعيدة عن الأرض إلى الحد الذي يجعل البنايات متناهية الصغر، والأشخاص المزعجين غير مرئيين.

منبهرة بكل ما أراه، بعد أن كنت أظن أن الحياة توقفت منذ وقت بعيد عن الإدهاش!

انخفض الطيار بالبالون حين وصل إلى حقول الملوخية، حتى لامست سلته الأعواد الخضراء، وعاد للارتفاع بنا من جديد، وكنت السائحة

المصرية الوحيدة، وبقية جيراني في السلة المقسمة إلى أربعة أقسام سياح من جنسيات مختلفة، إضافة إلى الجزء المخصص للطيار الذي يقف محاطًا بأسطوانات الغاز، التي يبدو أنه يتحكم من خلالها في ارتفاع البالون بطريقة ما..

نظرتُ له بابتسامة ردَّها بتهذيب، فعاجلته بالسؤال:

– إيه نوع الغاز الموجود في الأسطوانات؟

– «بيوتان» مضغوط بالنيتروجين.

وأكمل بابتسامة حين رأى علامات الاستفهام التي تطلّ من عيني، إنه نوع من الغاز يُستخدم لتسخين نسب محددة من الهواء داخل البالون، حتى تقلّ كثافته عن كثافة الهواء البارد، فيرتفع ويسحب معه السلة.

سألته مجددًا عن المادة المصنوع منها البالون لتتحمل الحرارة المرتفعة، فأجاب: «الهايبر لاست»، نوع من أنواع «النيون» يتحمل الحرارة والضغط المرتفع.

قفز إلى ذهني سؤال آخر عن سبب إقلاع البالون وقت «الشروق» فقط، وأجابني بأنه أنسب وقت من حيث حركة الرياح، وأن الظروف الجوية تمنعهم في أيام كثيرة عن الإقلاع؛ لأن الرياح هي المتحكم الأول في حركة البالون.

رأيت أن أكتفي بهذا القدر من الأسئلة؛ لأتابع مشاهداتي، واختتم حديثي معه بابتسامة لطيفة وعبارة مجاملة:

– مهنتك ممتعة.

– أشكرك، وأنتِ؟

لم أفهم ما الذي يقصده بسؤاله، فكرره بصيغة مختلفة:

– أقصد بتشتغلي إيه؟

رددتُ بتلقائية دون تفكير:

– صحفية؟

فصحك قائلًا بلطف:

– عشان كده بتسألي كتير.

كانت سأقول له إنني لم أعد كذلك، ثم تراجعت لأوفر على نفسي شرحًا يطول، واكتفيتُ بالقول:

– في الحقيقة أنا في إجازة طويلة، لكن يبدو أن الفضول الصحفي يلازمنا في أي وقت.

– مهنة مشوقة مش كده؟

قفز إلى ذهني تعليق ساخر «هكذا تبدو من الخارج»، لكني تراجعت للمرة الثانية، واكتفيت بهزّ رأسي.

حديثه أعادني إلى مشهد استقالتي العاصف الذي استوحيته من إعلان «استرجل واشرب بريل»، حيث أدخل إلى مكتب رئيس التحرير، وألقي في وجهه ورقة الاستقالة، ثم أغادر، ولكن لاعتبارات كثيرة لم أفعل ذلك.

تذكرت كذلك محاولاتي الفاشلة لشرح أسباب استقالتي، حيث ظللت ليلة كاملة أكتب كل ما يعتمل في صدري، ثم أمسحه قبل أن أضغط على زر الإرسال.

لم أرَ جدوى في أن أخبر رئيس التحرير بأن وجودي في جريدته الموقرة حوّلني إلى ماكينة كل وظيفتها ضخّ أكبر عدد من الأخبار المُسِفَّة التافهة، التي تجذب جمهورًا أكثر تفاهةً يجري وراء أخبار مؤخرة «كيم كارداشيان» وآخر بذلة لـ«صوفينار»، واستشارات ربات البيوت للدكتورة هبة قطب، ومغامرات آخر «العناتيل».

واكتفيتُ في النهاية بترك ورقة استقالة غير مسببة في مكتب السكرتيرة، ورحلتُ في صمت.

**

مع عودتي إلى الأرض عاد الواقع ليطل بوجهه القبيح..

فتحتُ الهاتف فور نزولي من البالون؛ لأجد ما يزيد على ٢٠ رسالة على «واتساب» و«فيس بوك» من أشخاص مختلفين، ناهيك عن المكالمات، قرّرت ألا أردَّ عليهم جميعًا، وأغلقته من جديد.

أعرف أنهم سيمطرونني بأسئلة ربما لا أعرف كل إجاباتها حاليًا، لكن لديَّ كل الوقت، وأعرف أيضًا أنهم بينما ينتقدون تهوُّري وعدم حكمتي يتمنَّون في دواخلهم لو يفعلون مثلي.

رقصة مع الرومي

«أبحث عنك فهل تضيء لي نجمًا؟».. فور أن انتهت من كتابة هذه الكلمات ونشرتها على صفحتها بـ«فيس بوك» انقطعت الكهرباء، هزَّتها موجة ضحك، بعد أن انحسرت، مسحت ما كتبته واستبدلته بـ«بوست» آخر تلعن فيه اليد التي تقطع الحياة عن الناس.

اقترب على استحياء قطُّها، الذي لا يأتي إليها إلا حين يجذبه الجوع من أذنيه، رفعتْ حاجبها ولوت شفتيها وهي تنظر إليه وهو يستقر تحت قدميها.

مثلما يجذب النور الفراشات، تجمَّعت في الظلام كل الأفكار السوداوية في رأسها، فكَّرت أن تطردها بإنجاز ما يتيسر لها من العمل المطلوب منها قبل أن تنفد بطارية اللاب توب، بحثت في «جوجل» عن «أشعار صوفية»، لتصميم مجموعة من الإكسسوارات محلاة بالطابع الصوفي.

«وإذا سألتك أن أراك حقيقةً... فاسمح ولا تجعل جوابي: لن ترى».. أعجبتها هذه العبارة؛ فهي تتشابه كثيرًا مع حالها الآن، وتساءلت: لماذا يتأخر الفرج كثيرًا حتى تستحكم الحلقات؟ لماذا لا يتشابه الواقع مع الأفلام التي يقف فيها البطل باكيًا وهو ينظر إلى السماء ويخاطب الله فتُساقط عليه أمطارًا جنيًّا؟ لماذا لا يرسل الله لها ولو إشارة صغيرة تنجدها من حيرتها؟

لعق القط قدميها، ابتسمت قليلًا ومسحت بيدها على رأسه، وأكملت بحثها، وهي تنظر إلى إشارة احتضار البطارية.

«فلَسْتُ أرىٰ الكَوْنَ حَتىٰ أراكْ».. شعرت بقشعريرة تنتابها وهي تقرأ هذه العبارة من قصيدة «عرفت الهوى»، التي تغنيها فرقة ابن عربي، وقررت أن تسمعها لأول مرة.

أعجبها كثيرًا هذا اللون من الأغاني، تعثرت في عبارة أخرى لجلال الدين الرومي: «ما تبحث عنه يبحث عنك»، تساءلت في صوت مرتفع: «فعلًا؟!» ماء القط ردًّا عليها.

جمعت مجموعة من الأبيات التي تصلح لحفرها على خاتم أو دلاية، قبل أن يفصل اللاب توب والهاتف، ويطبق عليها الظلام، قررت أن تنام، لكنها أخذت تتقلب على كل الجوانب دون أن تشفق عليها أفكارها المُعذبة، كفرخة في شواية الحاتي، تفكر في الموت الذي يراودها عن نفسها كل يوم، ويمنعها عن الاستسلام لأحضانه أن ترحل دون إجابات عن أسئلتها الكثيرة، فيكتبوا على شاهد قبرها: «عاشت وماتت (حائرة)».

كان هذا آخر ما فكرت فيه قبل أن تغفو..

كانت تسير في طريق متعدد التفريعات، لكنها أكملت سيرها للأمام لعلها تدرك آخره، حتى التقت شيخًا يرتدي جلبابًا أبيض بتنورة واسعة، وقبعة طويلة سألته:

– من أنت؟

– أنا جلال الدين الرومي.

تضافرت الدهشة بالفرحة والرجاء في عينيها اللتين رفعتهما إليه:

– دلَّني على الطريق أيها العالم الجليل، قل لي أي طريق سلكتَ لتقابل الله.

رفرفت الابتسامة على شفتيه وهو يجيبها:

– من بين كل الطرق إلى الله.. اخترت العشق.

– طريق العشق أم الخوف من العقاب وثقل الذنوب؟

– كوني كالثلج الذائب؛ يغسل نفسه بنفسه.. وسيعرف العشق طريقه إلى نفسك.

نطقت الحيرة من عينيها، فترفَّق بها وقال:

– اتبعيني.

تبعته، وكذلك فعلت العصافير وأوراق الأشجار وذرات الهواء، حتى وصلوا إلى مسرح كبير يدور فيه الراقصون، صعد إليه، سألته وهي تضع قدمها على أول درجة في السلم:

– أليست الموسيقى من الشيطان؟

– ما الموسيقى إلا أزيز أبواب الجنة يا ابنتي!

انتقلت إلى شفتيها ابتسامته المرفرفة، وظلَّت ترقص حوله مع بقية الراقصين، حتى شعرت بأنها تطفو إلى السماء، وترى السحب البيضاء حولها تشعّ بنور مبهر يغشى عينيها، ظللتهما بيدها، ثم فتحتهما، فوجدت نفسها فوق سريرها.

النور مضاء في الغرفة، والقطّ انصرف من جديد إلى لهوه، بعد أن ذهب الظلام.

obeikan.com

صفحة بيضا

أفرُّ إلى الكتابة وتفرُّ مني الكتابة، نلتقي لثوان تدوم فيها نشوتي المبتورة، ثم تلتقط ملابسها وتغادر في عجالة مثلما أتت، تعاملني كأي بائعة هوى، محترفة، آثمة، شهية!

أحاول أن أجعله روتينًا يوميًا.. أضبط العالم على وضع الإيقاف (pause) وأكتب ولو سطرًا واحدًا.. هكذا تتدفق الحياة بداخلي.

ينصحني صديق بالمنشطات. أضحك من النكتة.. يُخرج من جيبه سيجارة حشيش، فتنحشر الضحكات في حلقي، أنظر له متعجبة، فيدافع عن فكرته: «الحشيش أحسن منشط للإبداع».

ويعدّد لي أسماء المبدعين الذين عرف عنهم تعاطي هذه النوعية من «المنشطات» - على حسب وصفه- وكيف جعلتهم يعتلون الكتابة، ويُحلّقون في سماوات النشوة.

يترك لي السيجارة قبل أن يغادر، يعرف ما أعرفه في قرارة نفسي لكن أنكره، وهو أني يائسة لأجرب أي شيء..

أظل لعدة أيام أتأملها في انبهار، أحدِّثها عن حاجتي الملحَّة، ألتمس منها الوعود، ثم أعيدها إلى مخبئها، لأول مرة أتعاطف وأشفق على الرجل.. بعد أن توالت عليَّ الأيام والأسابيع والشهور، وأنا منكَّسة الرأس أمام صفحة «وورد» (word) لا تزال عذراء.

وباندفاع يائس أخرجت السيجارة وأعواد الثقاب، ووضعتهم على المكتب أمامي، وأنا أنظر للصفحة البيضاء على «اللاب توب» نظرة أسد يستعد للافتراس.

طالما كرهت رائحة التبغ، وقاومت إلحاح أصدقائي الإناث قبل الرجال، ونظراتهم الساخرة التي تنتقص من جرأتي، ولكني سأفعلها هذه المرة من أجل الكتابة.

تذكَّرت أغنية «لوكا»: «هشرب حشيش»، ابتسمت وبحثت عنها على «ساوند كلاود» لأسمعها وأنا أشعل سيجارتي الأولى والمحشوة بيد ترتجف من الإثارة..

* ستي قالت لي البنات بيلبسوا فساتين.

أقول ساخرة قبل أن أطبق على السيجارة بشفتيَّ: «كان زمان يا تيتة».

* أمي قالتي البنات ميلعبوش في الطين.

أسحب نفسًا قصيرًا، وأتقيأ الدخان الذي اقتحم رئتي، وأسعل بشدة.

* وخالتي التي ترتدي الخمار قالتي لي «غني براحتك بس هتروحي النار.

تخفت حدة السعال، وأنا أرتشف القبلة الثانية والثالثة، وأتشبَّع بأنفاسها.

* بس أنا أبويا مقاليش فأنا هعمل الصح وأشرب حشيش.

أشعر بأني أكثر خفة بعد توقف السعال، وأردِّد مع الأغنية.

* هشرب حشيش

هشرب حشيش

تتسع ابتسامتي ويعلو صوتي «هشرب حشيش.. أنا هشرب حشيش»، وأضحك بشدة وأنا أرتشف أنفاس السيجارة، فأعاود السعال.. أفقد السيطرة على الاثنين فيمتزج الضحك بالسعال لعدة ثوانٍ..

أتذكَّر الهدف من كل ذلك فجأة.. أنظر إلى صفحة الـ«وورد» التي لا تزال بيضاء.. أنظر إلى أحرف «الكيبورد» بعيون غائمة.. أحاول الكتابة فتهرب الحروف من أمام عيني.. أضحك وأردِّد: هشرب حشيش، ثم أجاهد للتركيز مع الحروف.. هذا هو حرف الهاء أضغط ضغطة طويلة فأكتب هههههههه، وأستمر في الضحك، ثم أعاود البحث عن الحروف الهاربة.

**

لا أتذكر ماذا حدث بعدها، لكني أستيقظت على طرقات متتابعة على باب غرفتي، سرْتُ برأس ثقيل أستند على الجدران؛ حتى لا يسقط مني!

نداء أمي الملحُّ المشوب بالذعر: «هَنا.. يا هَنا.. هَنا مبترديش ليه؟» أعاد إليَّ في لحظة كل ما حدث في الساعات الماضية.

نظرتُ بذعر إلى الثقاب ومطفأة السجائر.. تحاملت على نفسي وعُدْتُ مسرعة إلى المكتب خبأتهم في الدرج، وأغلقت اللاب توب، ورددت على أمي أخيرًا «ثوانٍ».

اختلقت قصة عن شعوري بالتوعك وعدم ذهابي إلى العمل اليوم.. نظرة واحدة إلى وجهي كانت كفيلة لإقناع أمي.. تناولت أقراصًا للصداع وطعامًا تحت إلحاحها.. وحين خرجتْ لتتركني أرتاح قفزتُ مسرعة إلى حيث «اللاب توب».

وكان ما كل وجدته..

هههههه هشرب حشيش.. هشرب خشيس.. خشرس جشيش.

obeikan.com

أنا لست ليلى

استيقظت «ليلى» لاهثة بعد أن زارها الحلم الذي يعاودها كل ليلة منذ تلك الليلة..

يأتيها صوته قادمًا من بعيد: «يا ليل.. يا ليل»، فتتجمع سحب الخوف في عينيها، وتعدو هاربة بينما تتساقط أمطارها، يلحق بها.. يزلزل كتفيها: «لماذا تهربين مني؟»، وبعد أن يهدأ نبض كليهما يمرِّر أصابعه على وجهها.

تغمض عينيها خلال رحلة يده التي يبدأها من جبهتها مرورًا بعينيها ووجنتها وصولًا إلى شفتيها، وحين تفتح عينيها مستسلمة له يتبدَّل وجهه إلى وجه أبيها، فيعاودها الذعر.

تدفعه بكل قوتها وتعاود الهرب، بينما يناديها باسم التدليل المفضل لديه: «يا ليل يا ليل لا تذهبي».

لا تلتفت، وتستمر في العدو حتى تتقطع أنفاسها، وهي تكرر بداخلها: «أنا لست هي.. لست هي».

المختلف في الحلم أن وجهه يتبدل كل مرة إلى أحد الوجوه التي تفزعها.

لم تستطع العودة إلى النوم هذه المرة، بعد أن غمرها طوفان الذكريات..

تذكرت مكالمته في صباح يوم بعيد، وإلحاحه أن يقابلها كطلب أخير،

مما جعلها توافق على مضض، جاء يومها وبصحبته زهورها المفضلة؛ لتدنو له أساور قلبها العالية، وطلب منها للمرة المائة أن تسمح له بمقابلة والدها، وكررت الرفض للمرة المائة، وبعد أن ذهب أخذت توزِّع الزهور على العشاق الجالسين في حديقة الحب.

لم تشعر بأنها تستحقها بعد أن غرست أشواكها في قلبه فرحل، مع العشاق سترتوي بالحب وتعيش أكثر.

غادرت سريرها، وذهبت إلى الدولاب، حيث تحتفظ بصندوق رسائله، والتي ظلَّ يرسلها دون يأس لعدة أشهر إلى مقر عملها، ويرفقها بقصائد قيس ابن الملوح.

كان يقول لها إنه «مجنون» هذا الزمان الذي لن يردُّه عن حب ليلاه صمت ولا صدّ، وكلما نُصح بنسيانها ردَّ: «ألا حبذا ذاك الحبيب المعذب»، وكانت تردُّ عليه دومًا: «وأنا لست ليلى.. كل ما يجمعنا تشابه أسماء».

أخرجت من الصندوق «سي دي» مُطربها الأثير محمد فوزي، الذي أهداها إياه في بداية تعارفهما، فدقَّ قلبها دقة مختلفة، ظنَّت معها أنه سيفرد أجنحته ويطير متجاوزًا الأسوار التي تحصنه بها من الوجع والخذلان وموت الشغف، لكنه توقف فجأة عائدًا إلى صمته الحزين.

وظلَّ «المجنون» ومحمد فوزي يطاردانها «ليا عشم وياك يا جميل»، بينما تختبئ منهما داخل ذاتها المزدحمة بالهواجس والصور التي لا تزينها أي ابتسامة لعشاق لم يعيشوا في تبات ونبات، باتت تحاصر قلبها وتمنعه من التحليق.

لم يستسلم «المجنون» وذهب إلى بيتها، في يده الشوكولاتة، وفي قلبه حبه المارق، وطلب يدها للزواج من أهلها، إلا أنهم لم يطردوه كأهل «ليلى» وفعلت هي، وكم كرهت يومها يدها؛ لأنها جعلتها تفقده.

ولم تره منذ تلك الليلة إلا في أحلامها..

مباراة زوجية

يشاهد مباراته وتقرأ في روايتها، يرشف رشفة من قهوته ورشفة من ساقيها العاريتين قبل أن يعود بكليته إلى الكرة التي وصلت إلى منطقة خطرة في طريقها إلى الشبكة.

سينتيمترات قليلة جعلته هدفًا ضائعًا، يركل بيده الهواء، وتنتفخ ملامحه غيظًا، يعيد حارس المرمى الكرة إلى خط الوسط، فيعود للاسترخاء في جلسته متكئًا على الوسائد، تلتقط يده وتقبِّل باطنها قبلة طويلة، فيمنحها ابتسامة اضطرارية، قبل أن يعود إلى الشاشة، فترفع حاجبها، ثم تعود إلى روايتها.

تلتقط دفترها من فوق الطاولة، تضعه على حجرها لتدوِّن شيئا وهي تختلس النظر إليه، ثم تغلقه سريعًا حين ينظر إليها، وتضعه بعيدًا عن متناول يده، يرفع حاجبًا متلصصًا ويسألها عما كتبتْ، تردُّ في اقتضاب: «حاجة مش مهمة»، وتخبّئ عينيها في صفحات الرواية.

يثيره الفضول، يقترب يحاول أن يأخذ الدفتر، فتسبقه إليه، يزداد اشتعال فضوله: عاوز أشوفها.

– لا.

– ليه؟

– ركِّز في الماتش بتاعك.

– لما تورِّيني كتبتي إيه؟

فتردُّ بصوت مطوط في دلال:

– وإية اللي يخليني أعمل كده؟

– بوسة؟

– مش مهتمة.

– كدابة!

تنفلت منها نصف ابتسامة، توافق بشرط أن تحصل على القبلة أولًا.

تلفُّ ساقيها حول خصره، وتحتضن ظهره بقدميها، بينما تحرث يداها في مؤخرة رأسه، يطيلان في القبلة حتى ينسيا أمر المساومة.

بعد دقائق طويلة يسألها وهي تتوسد صدره وهما يفترشان الأرض:

– ماذا كتبتِ في الدفتر؟

تبتسم في خبث:

– اعرف بنفسك.

ينهض ليأتي بالدفتر، ويعود إليها، يفتحه ويقرأ فتحمرّ أذناه وينظر إليها متوعدًا، فتنفجر ضحكاتها المكتومة، ويذهب إليها متوعدًا تاركًا الدفتر مفتوحًا على سطر وحيد: «وحده الفضولُ سيثيره ليعرف ماذا كتبتُ، وعندها سأساومه على قبلة».

obeikan.com

ما يفعله الرجال

بكلمات مقتضبة أبلغته هاتفيًا انتهاء علاقتهما بانتهاء مُدَّته، لم يفهم ماذا تقصد، ولم تُبالِ بالشرح، وأنهت المكالمة بابتسامة منتصرة.

سيلاحقها لبضعة أيام، ثم ينال منه اليأس مثل من سبقوه، وتنتهي قصَّته معها لتبدأ قصة جديدة.. أليس هذا ما يفعله الرجال؟

تسير بنفس القواعد في كل قصة؛ ترمي الطُعم للرجل، فيلتقطه ظنًا أنه الصياد، ولا يدرك أنه أصبح داخل شباكها، تستمر العلاقة لمدة ٣٠ يومًا، تحرص خلالهم ألا يعرف عنها أكثر من رقم هاتفها؛ حتى لا يتمادى في ملاحقتها بعد أن تبلغه انتهاء مدَّته.

تستطيع أن تغلق الخط بعدها أو تتباع خطًا آخر، لكنها لا تفعل، تتلذَّذ برؤيته يتصل مرة تلو الأخرى، ولا يلقى إجابة.

من قواعد اللعبة أيضًا أن تلتقط له صورة وحيدة تحفظها في «فولدر» (ملف) خاص على اللاب توب تحفظه باسم «أنتيكا».

بعد أن أغلقت الهاتف مع أحدث قطعة أنتيكا ستضيفها إلى مجموعتها، فتحت الفولدر، وأخذت تقلب النظر في معروضاتها، تترحم على هذا وتعلن ذاك، ثم أخذت تحسب مجموع فتوحاتها وغنائمها.

ارتفع العدد إلى ١٠ صور لعشرة رجال، بخلاف صورة رجلها الأول

الذي رحل، ولم يخلف وراءه سوى صورة وحيدة وطعنة في القلب.

الرقم هذه المرة يستحق الاحتفال، أضاءت الشموع وخففت الإضاءة، وضعت موسيقاها المفضلة، وظلت ترقص عارية من كل شيء، تحررت وهي ترقص من ملابسها ومن ذكرياتها معه التي لم تدم لأكثر من شهر قطعة قطعة، تحررت من خذلانه ورحيله دون حتى أن يودعها وداع لائق.. فقط مكالمة هاتفية يُبلغها فيها أنه سيسافر للعمل بالكويت.. كم بكت يومها ولأيام طويلة بعدها تتوسل إليه ألا يتركها.. أن يراسلها من هناك.. أن يعِدَها بأن يعود.. أن يترك لها فقط أمل انتظاره.. لكنه لم يجب.. ظلت لأسابيع تتصل دون مجيب..

توقفت عن الاتصال فقط عندما شاهدته يحتضن يد فتاة أخرى.. يبخُّ في دمها نفس الأكاذيب قبل أن يرحل ويتركها تموت من لدغته.. لكنها حققت انتقامها منه مثنى وثلاث ورباع وعشرة.. وعاقبته في كل هؤلاء الرجال ولم تمنحهم قلبًا ما زال يحبه بصدق ويكرهه بشدة.. وها هي ترقص الآن فوق جثثهم المتساقطة تحت قدميها.

قبلة من فم البحر

تزفر همًّا وغمًّا يطبقان على صدرها، ثم تأخذ قبلة حياة طويلة من فم البحر، الذي يفوح منه الملح والسحر.

كررتها مثنى وثلاث ورباع حتى تنهدت، واسترخى جسدها على «الشيزلونج».

التقطت الرواية المضطجعة إلى جوارها، لتغيب في تفاصيلها لبرهة من الزمن عن حياة لا تنتمي لها.

كانت الشمس تتثاءب استعدادًا لأخذ قيلولتها اليومية حين انتهت من الرواية، ونهضت لتسير على الشاطئ.

رسمت بأصابعها علامات استفهام على الرمال، جاءت موجة أخذت سؤالها، وألقته في البحر.

أكملت السير وهي تتأمل ما حولها تبحث عن شيء في كل شيء.

استوقفها مركب ينزف على الرمال، اقتربت منه تتلمَّس برفق جسده ممزق الطلاء.

حدَّثته في سرِّها: كيف انتهيت يا «عروس البحر» عالقًا بهذا الشاطئ؟

تصفعك الرياح، وينقش المارة عباراتهم الفارغة على جسدك كل يوم!

obeikan.com

قفزت إلى رأسها فكرة وهي تحدِّثه، لمعت عيناها وبعزم ما فيها أخذت تدفعه بيديها في اتجاه البحر.

لم يتحرك من مكانه، فركلته بقدمها، اهتزَّ قليلًا، وعاد إلى ثباته.

نظرت له في إحباط، ثم استدارت للخلف ودفعته بجسدها، تحرَّك لسنتيمرات قليلة كانت كافية لإنهاكها.

توقفت عن الدفع، وعادت للنظر إليه، دارت حوله تبحث عن عون.

لمحت زجاجة فارغة، أحضرتها وعبئتها من مياه البحر، وعادت إلى المركب.

أزاحت الرمال من أمامه بيديها حتى صنعت منزلقًا، ثم أفرغت عليه المياه.

عادت إلى مكانها خلف المركب، وعاودت الدفع بيديها وجسدها معًا حتى سقط في المنزلق.

استمرت في الدفع حتى وصل إلى المياه، وأدارته حتى أصبحت مقدمته في اتجاه الأمواج.

بعد دفعة واحدة أخرى سحبته الدوامة.

كان صدرها يعلو ويهبط وهي تراقبه بابتسامة مرتعشة يبتعد، عائدًا إلى موطنه.

فتى المارشميللو

كان يومي يوشك على الانتهاء كسائر الأيام العادية التي تأتي لتذهب، حين زُفَّت باقة من الزهور تحمل اسمي إلى مقر عملي، لم يكشف مُرسلها عن اسمه، فقط ترك بضع كلمات: «استسلمي واحلمي بكون جديد ومختلف».

قفزت الابتسامة إلى شفتي رغمًا عني وأنا أقرؤها، ثم أعيد قراءتها عشرات المرات، لعلها تبوح لي باسم صاحبها.

خمَّنت عدة أسماء، ثم استبعدتهم جميعًا، التقطتُ صورة للزهور، ورفعتها على صفحتي على «فيس بوك» مع رسالة مختصرة إلى صاحبها أن يرسل حلوى «المارشميللو» في المرة القادمة، تردَّدتُ لثوانٍ قبل أن أضغط على زرِّ النشر، ثم نشرتها، وجلست أنتظر.

لم تكن نفسي تهفو إلى الحلوى، وإنما إلى مُرسلها، وفي اليوم التالي في نفس الموعد وصل إلى مكتبي «بوكس» مليء بنوع الحلوى التي طلبتُها، كتب المُرسل على البطاقة هذه المرة: «المارشيمللو يا طفلة»، أسعدتني بقدر ما أربكتني التسمية، نعم أنا طفلة، لم يكبر فيها سوى حيرتها وجسدها، ولكن كيف يهيننني ويسمِّيني «طفلة»؟، وكيف تنكشف أمامه روحي بهذه الطريقة؟!

مرَّت الأيام ونهمي إلى مُرسل الحلوى المجهول يتعاظم، فكَّرتُ أن

أبعث له برسالة عبر الفضاء الإلكتروني على طريقة «خلي بالك من زوزو»: «من أنت؟»، ثم عدت واستسخفتُ الفكرة، تعمَّدتُ أن أنزل بعد انتهاء العمل بمفردي، وأسير في الجوار؛ لعله يدركني ويحدِّثني، لكنه لم يظهر.

كانت أسمع أغنية علي الحجار «لو تعرفي» التي تحمل رسالة الورد في اليوم مرات لا تحصى، دون ملل، أبحث بين كلماتها عن مفتاح اللغز الذي صار يملأ أيامي باللهفة والانتظار والابتسامات التي ينعكس ظلُّها على نوافذ المواصلات في ذهابي وإيابي.

عرف ذلك المجهول كيف يردي «التكشيرة» التي جعَّدت خطوط وجهي وقلبي دون جهد، فعل ما فشلت فيه وفشل آخرون كثر؛ فلو أعلن نفسه لم يكن سيشغل كل هذا الحيز من تفكيري وخيالاتي، وربما أسمعته كلمات جافة عن وقاحته وجرأته -وإن كانت تعجبني- لكنه لم يفعل، وتركني أنا أركض خلفه.

كنت أقلِّب في صفحتي على «فيس بوك» حين قرأت إعلانًا عن حفل وشيك لعلي الحجار في «ساقية الصاوي»، تسارعت دقات قلبي، وقبل أن أتراجع حجزت تذكرة «أون لاين».

حدَّثتني نفسي بأنه ربما يكون حاضرًا، فتأنَّقت وذهبت إلى الحفل بقلب مفعم بالأمنيات.

جلست في مقعدي، وأنا أطوف بعيني بين الجالسين؛ بحثًا عنه، حتى بدأ الحفل وانطفأت الأنوار، لم تتوقف دقات قلبي عن العزف مع الفرقة طوال ٦٠ دقيقة، وفي تمام الدقيقة الحادية والستين كاد قلبي أن يتوقف و«علي الحجار» يقرأ اسمي في الميكرفون من ورقة من الوريقات التي جمعها منسقو الحفل من الجمهور، (طلب بأغنية «لو تعرفي»، إهداء إلى «رحمة»).

ظللت فاغرة الفم حتى انتهى «علي» من الأغنية، ثم أخذت أدير رأسي في كل اتجاه حتى انتهى الحفل، وطوال الطريق إلى البيت، ولكني كنت كمن يحاول أن يقبض على الهواء.

اقتربتُ من حافة الجنون، ولولا أن هناك شهودًا على واقعة الورد والمارشيملو لظننت أن كل ما حدث محض خيالات.

قررتُ أن أتصرف، وبعد عدة أيام غيَّرت حالتي الاجتماعية على «فيس بوك» إلى «مرتبطة»، مرَّت عدة أيام أخرى لم يظهر خلالها أي ردة فعل، ثارت كرامتي، فغيرتها من جديد إلى «مخطوبة»، وإمعانًا في الكذبة، ارتديتُ دبلة والدتي، ونشرت صورة ليدي وهي مُزيَّنة بالدبلة.

كنت أعرف أنني تماديت، لكني كنت أعرف أيضًا أنني يائسة، وفي اليوم التالي وصلتني رسالة على هاتفي من رقم لا أعرفه: «مبروك.. كوني سعيدة يا طفلة».

تخلَّى عن حذره هذه المرة، ربما لأنه توقَّع أني لم أعد مهتمة بالبحث عنه، فحين بحثت عن الرقم في «الترو كولر» ظهر لي اسمه، ولعدة دقائق تالية ظللت أضحك.

في الصباح وصلت باقة ورد إلى مقر عملي، لم تكن موجهة لي هذه المرة، راقبته من مكتبي، وهو يتسلَّمها متفاجئًا، ويقرأ الكلمات على البطاقة: «دي دبلة والدتي يا مغفَّل».

رفع عينيه صوبي غاضبًا، فابتسمتُ له في عذوبة، سرتُ إليه فابتسم، وكانت عيناه ترسلان لي ألف أحبك.

obeikan.com

«السندباد» فقد بساطه

وقفَتْ أمام «الزحليقة» التي كانت عيناها لا تبلغ مداها وهي صغيرة، متعجبةً: كيف انكمشت إلى هذا الحد؟، مبتسمةً لحماسها بالأمس الذي يقفز من عين صغيرها اليوم، ابتاعت له تذكرة، وبدأ الصغير يصعد الدرج ليصل إلى قمتها، ضبطت الكاميرا لتلتقط له الصورة التي أعادتها إلى ملاهي «السندباد» بعد كل هذه السنوات.

وجدتها وهي تتجوَّل في صندوق ذكرياتها، الذي أخذها إليه الحنين، قبل نحو أسبوع، ومن وقتها والفكرة تراودها أن تأخذ ابنها إلى حيث ذهبت في رحلة مدرسية وهي في مثل عمره، ورأت وقتها بعين خيالها «السندباد» وهو يطير فوق بساطِه السحري، موزعًا البهجة على الجميع، والتقط لها أستاذ «أيمن» تلك الصورة، ويداها مرتفعة -كضحكتها- إلى السماء، فيما تنزلق من قمة «الزحليقة»، اتسعت ابتسامتها بذكر أستاذها وفارس أحلام طفولتها.

عاد الصغير إلى حضنها لامع العينين، احتضنته وهي تفكر: هل منح اسمها لأول بنت ينجبها كما وعدها؟

في هذه البقعة تمامًا قالت له ابنة السابعة: «أنا بحبك»، فضحك كما لم يفعل من قبل، ورفعها بكفيه عن الأرض حتى صارت طوله قائلًا: «لو كان ده طولك كنت أتجوِّزتك، لكن أوعدك أول بنت هخلفها هسميها على اسمك».

ضحكت من نفسها اليوم، وقد صارت توازيه طولًا، لكنه لم يعد هنا، ليقبِّل وجنتها ويهديها «غزل البنات»، ابتاعته عوضًا عن ذلك لطفلها، وقبَّلت تُفاحات وجنتيه.

لم تنحسر موجة الحنين رغم زيارتها إلى مدينة الملاهي، التي صارت عتيقة، خطر لها أن تزور أستاذها؛ فلا تزال تحفظ عنوان منزله، فكَّرت أن تستعين بصغيرها للمرة الثانية لتفاجئه بزيارة.

**

تحوَّل قلبها إلى عازف درامز يملأ الدنيا ضجيجًا، فيما يحاول صغيرها أن يهدئ حماسها وثرثرتها عن أستاذها، التي لم تتوقف طوال الطريق.

بيد ترتجف دقَّت جرس منزله، انفتح الباب ولِحَظِّها كان هو من فتحه، نظر إليها مستفهمًا، خاب أملها وهي تذكِّره بنفسها، ضرب رأسه بيده، وهو يهتف باسمها.

عرَّفته إلى صغيرها، وهي تمشِّط المكان بعينيها؛ بحثًا عن فتاته التي تحمل اسمها، قبل أن تركِّز في تفاصيله التي لم تعد تفاصيله، قميصه المجعَّد الذي يبدو منه بروز كرشه، عيناه اللتان لم تعودا تلمعان بذات البريق، حضوره الذي لم يعد له تلك المهابة، وقلبها الذي لم يعد يخفق بجنون لرؤيته.

ركَّزت في حديثه لعل الانبهار القديم يعود، لكنه بعد أن فرغ من الأسئلة التقليدية عن أسرتها وماذا تفعل في الحياة، وسألته مثلها عن زوجته وأولاده، وتلقَّت صدمة جديدة حين لم يكن بينهم فتاة تحمل اسمها.. جلسا والصمت المحرج يلفُّهما.

نظر حوله في ارتباك، ثم دخل في حديث عن الطقس المجنون الذي لا يثبت على حال، شاركت فيه بهمهمات مؤيدة، ثم تحجَّجت بموعد

يضطرها إلى الانصراف دون انتظار عودة زوجته والأولاد من الخارج، سلَّم عليها بحرارة مودعًا، وقبَّل الصغير من وجنتيه.

عادت من الطريق ذاته، تلملم الخيبات التي تتساقط منها، يجذبها «أيمن» من ملابسها، لتنتبه له ويسألها متى سيذهبان للسندباد مرةً ثانيةً، فتعده بأخذه إلى سندباد جديد لم يفقد بساطه بعدُ.

obeikan.com

obeikan.com

سبع حبات فول

لفَّت أمها الخيط الرفيع حول رسغها، بعد أن عقدته سبع عُقد، لتمنع حبات الفول السبع المتدلية منه عين الحسود.

شعرت به «سلوى» سوارًا حديديًّا يُدمي معصمها، فأفلتت منها استغاثة: «مش عاوزاه»، تبخَّر صداها في ضجيج تعويذات أمها التي ترجُمُ بها كل من رأها ولم يصلِّ على النبي.

غامت عيناها وهي تنظر إلى العُقَد السبع، تذكرت الخيط الأسود الذي التفَّ حول رسغها، قبل عشر سنوات، الذي عقدته خالتها سبع عُقَد مماثلة، بعد أن علقت فيه قطعة مجتزة من جسدها الصغير وكفنتها بالشاش، انتفض جسدها للذكرى وكتَّفت ساقيها.

أغلقت عينيها بشدة، تودُّ لو تظل ذكريات هذا اليوم وأيام كثيرة تلته، في الظلام، وتغلق عليها بألف مفتاح؛ حتى لا تظل تطاردها في صحوها وفي نومها، لكنها لم تَنْجُ من برق الذكريات ورعدها بداخل رأسها، القابلة وهي تُخرج المشرط من حقيبتها، أمها وخالتها وهما يقيدان أطرافها كالذبيحة، الألم الذي شعرت به وهن يتشاركن في قطع لحمها، والذي ظلَّ يصاحبها لعدة أيام تالية وهي تتبول، وهي تسير مفرجة الساقين فيسخر منها الصبيان، وهي ترقد في سريرها لأسابيع وشهور وسنوات لاحقة تتناوبها الكوابيس والهواجس.

رمت أمها بنظرة قاتلة رشقت في ظهرها وهي تغادر الغرفة، اتكأت

على ذراعيها حتى تنهض من رقدتها، وسارت عشر خطوات ثقيلة حتى وصلت إلى النافذة المغلقة، فتحتها، متجاهلةً تحذيرات أمها، تأملت الفضاء الأخضر حولها والزرقة المحلقة في السماء، حتى غادرتها نوبة الذعر، قطعت بأسنانها الخيط الملتفَّ حول رسغها وألقت به من النافذة.

تابعته بعينها حتى توارى خلف صخرة كبيرة رابضة أمام دارهم، كان صغار العائلة، الذين جاءوا ليحملوا شموع «السبوع»، يلعبون بجوارها.

رحل الغراب المعشش في عينيها، ورفرفت فوق شفتيها ابتسامة وهي تراقبهم، خطفت عينيها فتاة مجدولة الضفائر، كل ضفيرة لها معقودة بشريطة، مختلفة اللون عن شقيقتها، كانت تلهو بالقفز فوق الأحجار فتتأرجح الضفائر فوق ظهرها، حتى وصلت إلى الصخرة الأم، حاولت أن تقفز فوقها فزلّت قدمها وسقطت بجوارها وجرحت ركبتها، صرخت من الألم قبل أن تضع يدها على فمها، تجمَّع حولها الصغار، فدمدمت: «أمي هتضربني»، وهي تفرك عينيها الدامعتين بيديها الصغيرتين قبل أن تجلس على الأرض، وتسند ظهرها إلى الصخرة، وينصرف الصغار إلى ألعابهم.

أخذت تعبث في التراب حولها حتى تعثرت يدها بخيط تتدلى منه رقاب سبع حبات من الفول، نظرت إلى أعلى فتراجعت «سلوى» إلى الخلف، حتى خفضت الصغيرة عينيها فعادت «سلوى» إلى مراقبتها، وجدتها تلفُّ الخيط حول معصمها، فتجمَّعت سحب الخوف في عيني «سلوى»، وهطلت أمطار فوق الصغيرة لم تشعر بها وهي مستغرقة في لهوها.

عادت «سلوى» إلى سريرها بالخطى المتثاقلة ذاتها، جلست بجوار مولودتها، ثم رفعتها إلى صدرها، ونظرت إلى عينيها اللتين لا تزالان تستكشفان الدنيا، ووعدتها: «مش هعمل فيكي كده أبدًا».

استقالات ناعسة

كانوا أكثر من ألف ملَك هبطوا بأجنحتهم الثقيلة على جفونها المغلقة، فصار من المستحيل أن تقاومهم رغم نغمات المنبه، التي ترسل إلى خلايا مخها الناعسة ألف تحذير وتحذير، لتنفض عنها الغطاء وتستيقظ وإلا...

فرملت أفكارها عند هذا الحد؛ فلم تشأ أن تسترسل في التفكير الذي يأخذها بعيدًا عن مملكة النوم، وغاصت من جديد في بحورها المليئة بالأعاجيب.

بعد انتهاء الغفوة، عادت الأجراس تدقُّ في رأسها من جديد، قامت بجهد كبير لترفع رأسها عن الوسادة، وهنا استشعرت الملائكة الخطر، وشبّكوا أياديهم، وقفزوا قفزةً واحدةً قبل أن يعاودوا الهبوط على أجفانها، كانت كفيلة بأن يعود رأسها إلى السقوط على الوسادة مرة أخرى، لكن نغمات المنبه الذي تحرص على أن تضعه في مكان بعيد عن متناول يدها لم تتوقف عن الإلحاح.

– لماذا لا أستقيل؟ هكذا يبدأ صراعها اليومي، حيث تراود نفسها على الاستقالة، تعدد مزاياها، تحرر في ذهنها الصياغة التي ستقدمها بها إلى رئيسها في العمل؛ لتمحو عن وجهه تلك الابتسامة اللزجة.

ثم تتذكر الفواتير وأحلام السفر ونشر قصصها التي تقف بينها وبين الاستقالة.

وحتى تفضَّ الاشتباك الدائر داخل رأسها تعلن الهدنة، وتعطي الأمر لمنبه هاتفها ليعاود الرنين بعد خمس دقائق أخرى، على أن تعود للتفكير في قرار الاستقالة في الغد.

وكان آخر ما فكرت فيه قبل أن تأخذ جولة قصيرة في مملكتها أن تغير نغمة المنبه بأخرى أقل إزعاجًا حين تفيق.

احتفى بها ملائكة النوم وحملوها على أجنحتهم، وطاروا بها بين الحقول المليئة بالفراشات الملونة، حين شاهدته يقف في أحد الحقول يشمر عن ساعديه قبل أن يضرب الأرض بفأسه ضربة قوية، واستمرت تشاهده وهي تجلس فوق كتف أحد الملائكة وهو يعمل في حقله بفتوة، حتى استقام بظهره، ونظر إلى السماء وهو يمسح بظهر يده قطرات العرق عن جبهته، فشاهدها وهي تراقبه والابتسامة ترفرف على شفتيها، فردَّ عليها بابتسامة طغى نورها على نور شمس الصباح، ولوح لها بيده لتقترب، فهمست في أذن الملك ليهبط لثوانٍ في حقله، وفي طريقها إليه عاود الرنين، فسقطت من فوق ظهر الملك إلى سريرها متأوهةً، وهي تلعن المنبه الذي ينتزعها من أحلامها.

فوق الكوبري

داخل السيارة

أخذت «هانيا» تنقر بأظافرها على المقود في إيقاع منتظم، لاحظت رؤوسها التي بدأ يذهب عنها الطلاء، رفعتها إلى مستوى عينيها، فقطب «تاتو» حاجبيها.

خطر لها أن تستغلَّ الشلل الذي يعاني منه الكوبري وتستعيد أناقة أظافرها، استطلعت بعينها الطريق، فتأكد لها أنه لا أمل في فرج قريب، ثم أخرجت «الأسيتون» من «تابلوه» السيارة، وأخذت تمسح بالقطن المبلل الطلاء العالق في أظافرها.

داخل الميكروباص

في ميكروباص مجاور لسيارة «بي إم دبليو» حمراء، أخذت «هناء» تقضم أظافرها، وتتخيل لو كان للميكروباص أجنحة كالطائرات تجعله يتجاوز ذلك الكوبري فقط، قبل أن تلمع عيناها، فتفتح حقيبة يدها وتخرج منها دبلة ارتدتها في يدها اليسرى، فانفرجت شفتاها اليابستان عن ابتسامة.

نظرت حولها لتتأكد أنْ لا أحد يراقبها قبل أن تقبّل الدبلة وتغمض عينيها.

داخل **السيارة**

تأملت «هانيا» أظافرها بعد أن زال عنها الطلاء المقشر، واكتست بلون

جديد لامع، سباب الكلاكسات حوّل نظراتها إلى الميكروباص المنتظر بجوارها، شدَّتها الفتاة الجالسة بجوار الشباك، التي تقبِّل دبلة زواجها، وهي مغمضة العينين والابتسامة ترفرف على شفتيها، تجمَّعت في عينيها سحب الخيبة، وقبل أن تهطل منها الدموع أشاحت بوجهها.

داخل الميكروباص

احتضنت «هناء» بيمناها الدبلة في يسراها، واتكأت برأسها على الشباك لتسلي نفسها بمراقبة من حولها، بجوارها فتاة تستقل سيارة حمراء لم تعرف ماركتها، لكنها خمَّنت سعرها المُكوّن من عدة أصفار، تغلق زجاج سيارتها لتنعم بنسمات التكييف الباردة وتنعزل عن الغوغاء في الخارج.. هكذا فكرت وهي تلوي شفتيها، وتلتفت إلى الشاب الجالس بجوارها.

داخل السيارة

حوّلت «هانيا» الراديو من قناة إلى أخرى دون أن تصادف أغنية تلهيها عن انتظارها الذي طال لـ٣٠ دقيقة، عادت عيناها إلى الفتاة صاحبة الدبلة، كانت تنظر إلى الجهة الأخرى تتحدث إلى شاب وسيم، قالت له شيئًا جعله يبتسم لها في حنو، هذا هو زوجها إذن، عادت للنظر إلى يدها على المقود التي تزينها عدة خواتم.

داخل الميكروباص

– «الأجرة».

التفتت «هناء» إلى محدثها، قائلةً:

– «حاضر، ثواني».

أعطته الـ٢٠ جنيه التي ستعيش بها إلى آخر الشهر، أعطاها للسائق

وهو يقول له: «بقية الـ٢٠ للمدام».

ردَّت في ذُعر:

– «أنا آنسة».

اعتذر لها وهو ينظر للدبلة في يدها، خلعتها سريعًا، وشرحت له دون أن ترفع عينيها إليه:

– عجبتني فاشتريتها من بياعة في المترو.. «فالصو» بجنيه واحد».

نظر لها مبتسمًا في حنو لم ترفع عينيها لتشاهده.

**

أفاق الكوبري من إغماءته الطويلة، واستكمل الميكروباص والسيارة الحمراء طريقهما.

obeikan.com

أحمر صاخب

أفرغت محتويات الصندوق على سريرها دفعة واحدة غير عابئة بالضوضاء التي أحدثتها، اختارت من بين زجاجات طلاء الأظافر لونها المفضل، ورفعت القارورة الصغيرة إلى مستوى عينيها في تحدٍّ، ثم جلست على الأرض تسند ظهرها إلى السرير لتشرع في مهمتها.

رنَّ هاتفها، رأت اسمه على الشاشة، فأغلقت الهاتف وفتحت الزجاجة، أخرجت الفرشاة المبللة، وقبل أن تستقر على إبهامها كانت الدموع قد وصلت إليه أولًا، فمسحتها في ملابسها بصبر نافد وواصلت العمل بهمة لم تخلُ من الرعشة؛ بسبب سُحُب غضبها التي تجمعت في ستائر من الأمطار؛ بسبب مشاجرتهما الأخيرة.

يظن أنها عروسه البلاستيكية، يُلبسها ما يشاء، ويُحركها كيفما يحلو له، يأمرها: لا ترتدي هذا البنطال فيتلصّص الرجال على ساقيك، لا تصاحبي هذه الفتاة فهي تعيش بمفردها، لا تتأخري في العودة عن العاشرة يا فتاتي المطيعة، لا تصبغي شفتيك ولا أظافرك بالتفاح الأحمر؛ حتى لا تكوني شهوة.

حسنًا فتاتك لم تعد مطيعة، ولم تعد فتاتك كذلك!

هكذا كانت تحدِّث نفسها وهي تصبغ أظافرها بجرعات البهجة المسكنة، ومع انتهائها من آخر ظفر عبّأت صدرها بنفس طويل من الهواء

وهي مغمضة العينين، ثم زفرته وهي تفتح عينيها، معلنة انتهاء هطول الأمطار لهذا اليوم.

ومن خلف ستارة رقيقة من الندى نظرت إلى أظافرها المصبوغة بالأحمر الصاخب، وابتسمت ابتسامة صافية كسماء غسلت عيونها بالأمطار، وتركتها لتجفَّ في الشمس.

obeikan.com

حيرة الرمادي

وصلت إلى «الكافيه» قبل الموعد بربع ساعة، قرأت بعينيها قائمة المشروبات عدة مرات قبل أن تختار طلبها المعتاد «هوت شوكليت»، وغابت في تأملاتها في انتظار وصول مسئول دار النشر التي استقرَّت عليها بعد طول تردد لنشر روايتها الأولى، التي أطلقت سراحها بعد خمسة أعوام من الحبس الانفرادي في الملف المُعَنْون «مشروع رواية».

كانت تطل عليها كل حين، تتفقَّد أحوال أبطالها، تمنح فتاة حزينة قبلة تعيد التورُّد إلى وجنتيها الشاحبتين من وطأة الانتظار وتتابع الخيبات.

تنتصر لموظف من رئيسه الذي ينافس «دراكيولا» في ارتشاف دماء بني آدم، فتضع في طريقه قشرة موز، تزل بها قدمه فيرقد عدة أيام، بلا حول، يبصر فيها حجم قوته الحقيقية.

تقرر مصير زوج خائن. تُسقط ورقة التوت عن إعلامي متلون. تُطلق أسراب المعتقلين لتتنفس الحرية التي خُلقت من أجلها. تُهيل التراب على حاكم فاسد.

كانت بالغة الثقة بما ستفعله لتعيد حيوات أبطالها الحائرين إلى مسارها الصحيح، وهي تملك بيدها التي تنقر على لوحة المفاتيح، ملكوت كل شيء، فيما تتعاظم حيرتها حين تُدفع دفعًا لأخذ أي قرارٍ في حياتها مهما كان تافهًا، وهي لا تملك من أمرها أي شيء.

تحتاج لعدة دقائق لتقرر عبور الطريق، تطول الدقائق لساعات حين يتعلق القرار بشراء حذاء جديد، أو ساعة يد، لا تشحن أبدًا بطاريتها؛ حتى لا تعرف كم يتسرب منها من الوقت في الحيرة، التي تلازمها مع كل خطوة؛ ففي الروايات فقط تقابل الأبيض والأسود. أما في الواقع فتعيش حيرة الرمادي حتى آخر نفَس.

أفاقت من أفكارها على صوت مسئول دار النشر، تبادلا كلمات الترحيب، قبل أن يفتتح الحديث بسؤال: «لسه محتارة في اسم الرواية؟»، لمعت عيناها بفرحة اكتشاف كنز، وابتسمت وهي تشكره في سرها، وتردَّ على سؤاله بكل ثقة: «حيرة».

obeikan.com

عفريت قطة

بنبرة خافتة مُلحَّة نادته السيدة الأربعينية:

– يا داكتور.. يا داكتور منعم.

لم تترجم قدمه أول نداء وتابعت صعودها، ومع الثاني ثبُتت في الهواء لثوانٍ، تذكر خلالهم المرات التي كان يبادرها فيها بالسلام تأدبًا حين يصادفها، فتردُّ بغمغمة خافتة أو لا تردُّ، قبل أن تعود قدمه لتستقر على الدرج.

رسم بجسده نصف دائرة حتى أصبح في مواجهتها، وأجاب وعينيه تشرب من الأرض:

– تحت أمرك.

– قاصداك في خدمة يا خويا.

– اؤمري.

– الأمر لصاحب الأمر..

قالتها متنهِّدة، وصمتت لثوانٍ تلملم حبَّات شجاعتها المنفرطة على الدرج قبل أن تدعوه إلى دخول شقتها:

– اتفضل، مش هينفع على السلم.

تردد بدوره وكاد أن يهرب، ولكنه استجاب لاستغاثة غريق لمحها في عينيها ودلف.

تركت الباب مواربًا، ودعته للدخول إلى غرفة الضيوف، جلس على طرف المقعد مستعدًا للتبخُّر في أي لحظة، مع أي إشارة لقدوم زوجها المعلم «بيومي» مقاول البناء وصاحب البناية، التي يستأجر فيها شقة منذ انتقاله من بيت أسرته بطنطا للعمل في القاهرة قبل عامين.

كان «منعم» يرهب غلاظة صوته ووجهه الذي تجافيه الابتسامة، وصياحه الدائم على زوجته وابنته الذي يرجُّ البناية، ويحرص على تسديد الإيجار قبل أيام من بداية الشهر حتى لا يصصدم بنباحه.

ولولا إيجار الشقة الحنون على راتبه الهزيل، وقربها من عمله بميدان «السيدة زينب» مما يغنيه عن المواصلات لغيَّر العتبة منذ زمن.

سارع بفتح الحديث بعد أن رفض بلطف عرضها بأن تحضر له الشاي:

– خير إن شاء الله؟

– بنتي يا داكتور بنتي.

– عندها إيه؟

– راكبها عفريت قطة.

– عفريت إيه؟!

– قطة اسم الله على مقامك.

- إزاي يعني؟!

- هحكيلك الموضوع من أوله وأنت هتفهم.

قاطعها بنبرة يقفز منها القلق:

- هو المعلم «بيومي» هيتأخر؟

طمأنته:

- عنده مصلحة في بورسعيد كام يوم وهيرد.

- طيب احكيلي بقى إيه اللي حصل؟

- من كام شهر «سعاد» بنتي سمعت قطة بتنونو قصاد باب الشقة، واتحايلت عليّ تدخّلها، ووافقت قلت أهي تتلهي فيها، ومن يوميها وهي مبتفارقهاش، على طول شايلاها وبتأكلها وتلاعبها وتكلمها كمان، وبيني وبينك قلت لنفسي القطة جتلنا نجدة، والبت اتلهت فيها، وبطلت تزنّ على موضوع الشغل اللي أبوها رافضه، وكان مسوّد عيشتنا زعيق وخناق كل يوم.

توقفت لالتقاط أنفاسها قبل أن تلقي بثقلها:

- بعد كده الموضوع زاد عن حده، وبقت تعمل تصرفات غريبة.. تأكل مع القطة من نفس الطبق، وتلحس اللبن بلسانها، وكل ما أقلق بليل ألاقيها سايبة فرشتها ونايمة على الأرض جنب القطة، ولا مواخذة بتصرَّف نفسها في الرمل زيها.

انسالت دموعها حزنًا على وحيدتها، قبل أن تتابع:

- سايقة عليك النبي يا داكتور تشوف لنا صرفة، أنا محلتيش غيرها،

أبوها جاب الشيخ «طه» يقرأ عليها قرآن يمكن يطرد العفريت، وفضلت هادية وراسية، وأول ما مشي رجعت تنونو تاني.

– أنا أول مرة أسمع حاجة زي كده، بس قوليلي أنتي عاوزاني أعمل لها إيه؟

– الست «فتحية» جارتنا قالت لي يمكن يكون اتنقلها مرض من القطة ومحتاجة لداكتور.. مش أنت داكتور؟!

– أولًا أنا صيدلي مش دكتور بشري، وأعتقد إن حالة بنتك ممكن تكون محتاجة لدكتور نفسي، لكن مفيش مرض عضوي بيخلي الواحد يقلب قطة!

– يعني البت خلاص ضاعت وعقلها فوِّت.

– أنا مقولتش كده.. المرض النفسي له علاج هو كمان، قوليلي هي بقالها قد إية بالظبط على الحال ده وفيه حد زعلها أو حصل أي حاجة غريبة قبلها؟

– من حوالي أسبوعين، وقبلها كانت فرحانة وبتتزوَّق عشان قراية فتحتها على ابن عمها، صحيح هي مكانتش موافقة في الأول بس أنت عارف المعلم «بيومي».. حلف عليها وعليا طلاق تلاتة وبعدها رضيت وربنا هداها، ونزلت معاها اشترينا الفستان وكانت مبسوطة.. آه والنبي كانت مبسوطة وعمالة تغني، مش عارفة إيه بس اللي حصل لها!

– وبعدين إيه اللي حصل؟

– أول ما ابن عمها جه هو وعيلته لقيناها نزلت استخبت تحت الترابيزة اللي هناك دي، وكل ما حد يكلمها تنونو، ومن ساعتها وهي على ده الحال. اختتمت القصة بضرب كف على كف.

حين أشارت السيدة إلى الطاولة الموجودة في مدخل الشقة لمح «منعم» «سعاد» وهي تتوارى سريعًا داخل غرفتها، ثم عادت مرة أخرى إلى مكانها تسترق السمع، خيِّل إليه لوهلة أنها تغمز له بعينها، ثم عاد وجهها إلى جموده كأن شيئًا لم يكن.

وعد «منعم» -وهو لا يزال على حيرته- السيدة بعرض حالة ابنتها على طبيب نفسي زميله، والردّ عليها في أقرب وقت قبل أن يستأذن بالانصراف.

وشاهد «سعاد» وهي تحمل القطة التي تموء تحت قدميها، ثم تدلف إلى غرفتها، وتغلق الباب خلفها.

obeikan.com

obeikan.com

أقوى رجل في العالم

صرخْتُ ببهجة عارمة حين رأيته قادمًا نحوي، وطِرْتُ إليه أغمره بالقُبَل، وأنا أوزِّع نظرات خبيثة على صديقاتي المنتظرات وصول ذويهن أمام بوابة المدرسة.

ناديتهن ليرين كم هو فارع الطول ومفتول العضلات! وأنا أعيد عليهن للمرة المائة كيف يرفعني بيد واحدة ويسير بي لمسافات طويلة دون أن يرفَّ له جفن، بينما ابتسامته ونظراته الحنون تتابع حركات يدي وانفعالي، وأنا أروي لهنَّ عنه قصصًا لا تنتهي.

حتى يوقف قطار ثرثرتي أغراني بالذهاب إلى بائع الحلوى، فودَّعتهنَّ سريعًا بابتسامة منتصرة.

لم أدعه يغيب لثانية عن ناظري، وأنا أسير بجواره، وأحاول أن أقلِّد مشيته كـتلٍّ صغير ينظر إلى جبل شاهق الارتفاع بانبهار وطاقة حب لا مثيل لها، ثم ابتسمتُ له ابتسامة شيطانية يعرف مغزاها جيدًا، فهزَّ رأسه وبادل أجزاءه الصغيرة الابتسام بحنو وتسامح وانحنى ليحملني فوق كتفيه.

طوال الطريق، كنت أجلس فوق ربوتي العالية، وابتسامتي تمتدُّ من الأذن للأذن، وقبل أن نصل إلى البيت توقَّف أمام بائع الحلوى وقال: «اطلبي يا أميرتي».

ازداد عمق ابتسامتي، وأنا أنظر إلى الحلوى بعيون نهمة، ولعاب يسيل، فضحك مني البائع، وذهبنا من عنده محمَّلين بمختلف أنواعها.

صعدنا السلم، وجعلني أرنُّ الجرس بيدي الصغيرة، ففتحت أمي ورأته يحملني، فنظرت إليّ لائمة: «كبرتِ يا أميرة، وما عاد أبُوكِ قادرًا على حملك».

فنظرتُ إليها باستنكار، ولم أدعها تكمل حديثها، وأنا أهزُّ رأسي بشدة: «أبي، هذا غير صحيح. قل لها أنت قوي، بل أنت أقوى رجل في العالم!».

فنظر أحدهما إلى الآخر وغرقا في الضحك، وامتصَّ ثورتي قائلًا: «نعم يا صغيرتي، أبُوكِ أقوى رجل في العالم».

وزأر كالأسد، فارتفعت أمواج ضحكتي، ودُرْت حول نفسي في رقصة احتفالية، ثم جاريته وصرخت من الرعب، وأنا أنظر إلى أمي ولسان حالي يقول: «أما قلت لك؟!».

وبعد أن قبَّل وجنتيَّ أنزلني من فوق البساط السحري، ثم أعطاني الحلوى، وذهبت إلى غرفتي، أكاد أطير من فرط السعادة..

**

«مريم.. مريم» كرَّرت أمي النداء مرتين، وفي الثالثة جاء نداؤها أقرب إلى الصراخ جعلني أسقط من فوق بساط أحلامي، وانتبه إليها فقالت لي لائمة: «اذهبي إلى غرفة والدك، وناوليه الدواء، ولا تثرثري معه طويلًا؛ حتى لا تجهديه».

رائحة الذكرى

كانت الشمس لا تزال ناعسة حين عدتُ من نزهتي المبكرة، استعملتُ المفتاح الذي أعطته لي العمة؛ حتى لا أوقظها، وتسللت إلى غرفة ابنها «خالد» التي خصَّصتها لي منذ مجيئي لقضاء عدة أيام برفقتها.

ألقيت السلام عليه من خلف حجاب الصورة التي تعلو سريرًا لم يشتمَّ رائحته منذ عامين.

«اللهم هجرة».. دعوة طالما ردَّدها «خالد» وآلاف الشباب مثله، كانت تحجزها دموع أمه، حتى رحل أخيرًا محمولًا فوق الأكتاف.

على «الكومود» تأملتُ صورة حبيبته «نادية»، تخيَّلتها وهي تخطو خارج الإطار مساء كل يوم، وتتجوَّل في غرفة حبيبها، تقبّل وجنتيه وشفتيه عبر زجاج الصورة، فتترك شفتاها بصمات لا تراها سوى عيون العاشقين، وتشتمُّ الفائض من رائحته في دولاب ملابسه وفوق وسادته.

فتحتُ الصندوق الراقد فوق مكتبه، تلمَّستُ شالًا بداخله قبل أن أرفعه إلى أنفي، لا يزال يحمل رائحة الميدان.

سحبتُ نفسًا عميقًا، فنفذتْ رائحة الخل والغاز إلى ذاكرتي، وأعادتني إلى قاعة المسجد؛ حيث جلست العمة تخبئ بيديها وجهها من الدنيا التي لم يعد فيها ولدها، وهي تناديه: «يا خالد يا خالد»، فلا يردُّ عليها لأول مرة، وحبيبته نادية وهي تردد: «الحمد لله الحمد لله»، فلا يدوم الصبر طويلًا

مع عظم فجيعتها، فتعود للسؤال: «ليه يا رب؟» فيما تتدلى رصاصة الخرطوش التي أخرجوها من جسده، من سلسلة حول رقبتها، وصوت المقرئ الذي استشعرته وقتها قادمًا من عالم آخر وهو يرتل: {سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ}.

فتحتُ عينيّ المطبقتين هربًا من الذكريات المتشحة بالسواد، مشفقة على العمة التي ترفض أن تخطو خطوة واحدة خارج هذا الجحيم، حتى تزيح غبار النسيان كلما تجمّع حول صورة وحيدها، وأحكمت إغلاق الصندوق حتى لا تتطاير رائحة الذكرى.

oneikan.com

قابل للكسر

تشبثت نظراتها في ذيل سيارة «النصف نقل» كطفل يرفض إفلات جلباب أمه، قبل أن تسحبها بعيدًا إلى حيث سيارتها المتوقفة أمام المنزل الريفي، فينسحب منها البريق، ثم تنفلت نظراتها مرة ثانية وتعدو إلى حيث تصعد النساء خلف الكراتين المحملة بجهاز العروس، صديقتها الوحيدة، التي دعتها لزيارة بلدتها وحضور عرسها، بعد سنوات من انقضاء أيام الجامعة التي جمعتهما.

أنهت حيرتها سيدة مدَّت لها يدًا تسحبها إلى ظهر السيارة، منحتها ابتسامة ممتنة، وجلست إلى جوارها. مع حركة السيارة بدأت الجدة العجوز تردد على نغمات الدف: «يا شربتات»، فتردِّد خلفها النسوة: «يا احنا»، «يا كحك العيد».. «يا احنا»، تشجَّعت حين غمزت لها العجوز وهي تقول: «يا بسكويت» فردَّدت معهن بصوت يرتجف من النشوة: «يا احنا».

مع مطب شديد تدحرجت كرتونة مكتوب عليها «قابل للكسر» إلى جوارها، عرضت أن تحملها؛ حتى لا تسقط مرة ثانية، بين دقيقة وأخرى كانت تطل عليها بعينيها، تعدِّل من وضعيتها أو تضمُّها أكثر إلى صدرها، لم تهدأ أنفاسها المضطربة إلا حين سلَّمتها إلى أحد الرجال الذين تشاركوا في تفريغ ونقل حمولات السيارات، ورافقتها بعينيها حتى وصلت إلى منزل العروس الجديد.

حين نزلت من السيارة، وعادت بمفردها من جديد سرت رجفة في جسدها، فاحتضنته بذراعيها، وهي تفكِّر في روحها الجوزائية باقتدار؛ فهي تنأى عن الناس في برج عالٍ حتى لا تنكسر، وتجعلها وحدتها في هشاشة تلك الكرتونة.

انتزعتها أصوات الزغاريد المحملة بالبشائر من أفكارها وأعادت لها الدفء الذي استشعرته منذ لحظات وسط الصحبة.

opeikan.com

قبل أن تستيقظ الشمس

الشروق كان الوقت الأنسب لتنسلَّ من «الشاليه»، وتنعم بما تيسر لها من الحرية.

عدَّت تسع عشرة خطوة قبل أن تصل. لم يشاركها في الشاطئ سوى طائر مبكر مثلها، ربما هرب من عشه هو الآخر، ابتسمت للفكرة، ثم تبعته ركضًا حتى شعرت بالدفء والبهجة يسريان في أوصالها.

اقتربت من البحر، خلعت خُفَّها، ولمست بقدمها الماء، قفزت في سعادة حين وجدتها دافئة، عادت إلى ذهنها الفكرة، التي تطاردها في كل مرة تختلس فيها النظر إلى السابحين والسابحات حتى تطردها أمها بقرصة أذن وهي تأمرها بغضِّ البصر، وسوست لها الفكرة بقوة هذه المرة مع غياب موانعها المعتادة: «الشمس لم تستيقظ بعد، وأهلك كذلك»، نظرت مرة أخيرة إلى باب «الشاليه» المغلق قبل أن تشرع في خلع ملابسها حتى تحرَّرت من آخر قطعة يتوارى بداخلها جسدها.

لم تنظر خلفها ثانيةً، ركَّزت عينيها على قرص الشمس القادم من بعيد وهي تتقدَّم نحوه، دقَّات قلبها الهادرة منعت عنها الشعور بالبرد لبضع دقائق قبل أن ينخر البرد جسدها، فتحتضنه بذراعيها، وهي تردد من بين أسنانها المصطكَّة: «لو علمني أبي السباحة مثل أخي!».

نظرت إلى السماء بقلق لترى إلى أين وصل القرص المتعجِّل، فوجدت

صديقها الطائر توقَّف عن طيرانه ناظرًا إليها، ابتسمت بخجل قبل أن تعلو ضحكتها، وتغمز له قبل أن تسرع الخطى لتسبق قرص الشمس.

وصلت إلى الشاطئ وهي ترتعد كطائر مبتلّ، التقطت ملابسها وجفَّفت بها جسدها سريعًا، نظرت إلى جسدها العاري للمرة الأولى دون أن تشعر بالخجل منه، أدخلت رأسها في خمارها الطويل واحتضنت بقية الملابس، آخذةً طريق العودة إلى «الشاليه».

opeikan.com

دربوكة

توقفت فجأة عن السير، وزَّعت نظرات خاطفة على المارة قبل أن تجلس على مقعد إسمنتي في جانب الطريق.

وضعت الحقيبة التي تحملها على ردفيها، وأخرجت في هدوء الآلة الرابضة بداخلها.

تلمَّست أصابعها برفق سطحها الزجاجي قبل أن تحني رأسها وتغمض عينيها وتبدأ في العزف..

مشهد الفتاة التي تحتضن «الطبلة» استوقف عددًا من المارة، رموها بنظرات متعجبة ومستنكرة، وتعليقات من قبيل «إنتي بتشتغلي في شارع الهرم؟»، «ارقصي لنا أحسن»، «احترمي الحجاب اللي لابساه».

ظلَّت مغمضة العينين، متوحِّدةً مع إيقاعات «الدُّم» و«التك» و«السك»، حتى فرغ ما في جعبتهم من تعليقات وصمتوا لثوانٍ، توقف فيها الكون عن دورانه ينصت إلى صوت طرقات يديها فوق الطبلة، وتعلَّقت نظرات الكل بتعبيرات الفتاة التي تعكس كل المتناقضات في آن واحد.

ازدادت دائرة المستمعين، تغيَّرت الوجوه، من يكمل طريقه ومن يحلُّ مكانه، والفتاة مستمرة في عزفها بكل حواسها، وكأنها تعزف لحنها الأخير إلى الكون، ولا يهم من يسمع حتى توقفت فجأة مثلما بدأت.

ساد الصمت وفتحت الفتاة عينيها ورفعت رأسها لأول مرة إلى المتفرجين تخترقهم بنظراتها، وفجأة صفَّق أحدهم، وهو ينظر لمن حوله، وانضمَّ له الجمع في وصلة من التصفيق الحار.

طلب منها الحضور العزف مجددًا، هذه المرة رافقها شاب عذب الصوت بالغناء، حاولت أن تجاري اللحن بالطبلة تعلو وتهدأ معه، انضمَّ بعدها عدد أكبر من الحشود، لعدة ساعات كان الجمهور يتغير ويتبدل وهي رابضة فوق طبلتها تُفرغ كل ما بداخلها من شغف وحب وغضب وثورة وإبداع.

نسيت الوقت ونسيها الوقت في أول حفل جماهيري لها منذ أن تعلمت العزف على الطبلة قبل ثلاث سنوات.. الآن فقط صار بإمكانها الموافقة على طلب مدربها للمشاركة في حفل، ومواجهة الجمهور من فوق خشبة المسرح.

obeikan.com

كان فيه فراشة

انجذبت إلى كفِّه الأسمر الرحب، اقتربت للتلصُّص، أعجبها كون نسمات الصباح الباردة لم تردّه عن الشرفة ليحنو على الأزهار.

اقتربت أكثر متوارية خلف الستار، لدهشتها كان يتحدث إلى زهرة قرنفل وهو يسقيها: الشمس نايمة دلوقتي يا قرنفلة، هقفلك الستارة عشان تدفي لحد ما تصحى.

ابتعدت سريعًا عن الستار مختبئة في الشرفة المجاورة حتى أغلقها، وغادر الشرفة.

خرجت الفراشة من مخبئها وذهبت إلى الزهرة، بادرتها بالتحية قبل أن تسألها عن اسمه، فأجابت القرنفلة: «صالح».

ذاب اسمه على شفتيها وهي تكرره مرة تلو الأخرى، بينما تتسع ابتسامتها: «صالح.. صالح.. صالح».

– الفراشة: كلميني عنه.

– القرنفلة: بيكلمني كتير، حاسس إني بسمعه وفاهمة كلامه، بس مبقدرش أردّ عليه؛ إنتي عارفة مش هيفهم لغتنا.

– الفراشة: وإيه كمان؟

– القرنفلة في زهو: أنا صديقته المقربة.. بيكلمني عن شغله وعن حبيبته.

– قاطعتها الفراشة: هو عنده حبيبة؟!

– القرنفلة: أيوه وهيتجوزوا قريب.

كانت الفراشة مستغرقة في لملمة آمالها التي تبعثرت من الصدمة التي ألقتها الزهرة بغير اكتراث، فلم تنتبه لـ«صالح»، وهو يدخل الشرفة.

حين شاهدها هتف: إيه الجمال ده؟

التفتت له، وأخذت تختال أمامه بأنجحتها الخلابة.

سحرتها عيناه وشفتاه، دارت حوله عدة دورات، فضحك في جذل وهو ينظر إليها بإعجاب متبادل.

فردت أجنحتها وطارت، لوَّح لها فرفرت بجناحيها بالمثل. نظر «صالح» إلى القرنفلة وقال لها غامزًا: صاحبة جديدة، ثم عاد إلى الداخل بعد أن أخذ هاتفه الذي نسيه في المرة الأولى.

في الصباح التالي مرَّت الفراشة في نفس الموعد، وكان «صالح» يسقى زهوره ويحدِّثها كعادته.

اقتربت في خجل، حين رأها سأل الزهرة: دي صاحبتك بتاعة إمبارح؟ وهو يتأمل الفراشة بابتسامة أصابتها بالدوار، فحطَّت فوق كتفه ثم أسفل عينيه، ثم لثمت شفتيه، وطارت و«صالح» في قمة اندهاشه.

في اليوم التالي، كان يسقى الزهور وينظر حوله مترقبًا عودة الفراشة، وقبل أن يعود إلى الداخل وجدها تقترب، ابتسم وفرد باطن يده فحطَّت

بداخله.

ظلَّ يحدثها وهي ترفرف بجناحيها، تمني نفسها به، تتمنى لو يصير كفه بيتًا لها، و«صالح» ينظر إليها منبهرًا من سحرها.

طارت وحطَّت فوق القرنفلة.. أخرج هاتفه، والتقط لها صورة قبل أن تودِّعه.

لم يفهم «صالح» سر هذه الفراشة التي تأتي إلى شرفته كل صباح، كان ينظر لصورتها على الهاتف ليتأكد أنه لا يتخيل، وأن كثرة حديثه مع الزهور أصابته بالهلاوس.

في المساء جاءت حبيبته، أخذها إلى الشرفة عرَّفها على أصدقائه الزهور الذين يمنح كلًا منهم اسمًا، لم تُظهر له سخريتها، وابتسمت له وجذبته ليقتسما الأرجوحة. حكى لها عن الفراشة وأراها صورتها، لم تصدِّق أنها ذات الفراشة التي تأتي كل صباح، وأكدت له أن جميع الفراشات لها نفس الألوان!

أزعجه عدم تصديقها، رنَّ هاتفه فغادر، ليأتي به من الداخل، سارت إلى زهوره ونظرت لها باستهزاء.

مرَّت الفراشة على الشرفة، كانت المرة الأولى التي تأتي فيها في المساء، افتقدته، وقررت أن تمر؛ لعلها تراه.. شاهدت فتاة تجلس في شرفته، فاختبأت خلف الستار، وهي تتساءل عن هويتها.

عاد «صالح»، ابتسمت له الفتاة، أمسك يدها وقبَّلها، فسقط قلب الفراشة، تشجَّعت الفتاة وحطت بشفتيها على شفتيه، وقبل أن تطير مبتعدة التقط شفتيها وأطبق عليها، لم تحتمل الفراشة أكثر من ذلك، وحملت قلبها الجريح وطارت مبتعدة.

لم تذهب إلى شرفته في اليوم التالي، ولعدة أيام تالية ظلَّ ينتظرها «صالح» حتى نسي أمرها.

حين ذهب الشتاء وجاء الربيع تملك منها الحنين، وقررت أن تمر على شرفته لتراه من بعيد دون أن تقترب.. لم يكن موجودًا، اقتربت من صديقتها القرنفلة، لم تقاوم فضولها، وسألتها عن «صالح»، وهل تزوج من فتاته.

فقالت لها الزهرة: لسه، أتمنى ميتجوزهاش، حاسة إن أول حاجة هتعملها إنها هتتخلص مننا.

فصرحت لها الفراشة بسرها: أتمنى يتجوّزني أنا. ضحكت القرنفلة.

– سألتها الفراشة في ثقة: أجمل مني؟ وهي ترفرف بجناحيها في كرنفال من الألوان.

ابتسمت صديقتها في رفق وقالت لها: مفيش وجه مقارنة بينكم.

الفراشة: ليه؟

الزهرة: لأنك فراشة!

الفراشة: لو حبّني زي ما بحبه هيشوفني أجمل بنت.

في هذه اللحظة دخل «صالح» ووجد الفراشة، رحّب بها في صخب، وسألها عن سر اختفائها. فرحت؛ لأنه عرفها، ونسيت كل ما حدث.

لم تستطع مقاومة اشتياقها إليه، وقامت بطقوس الترحيب المعتادة، حطّت فوق كتفه، ثم أسفل عينيه، ثم على شفتيه. فرد لها «صالح» كفه، فاستقرّت داخله. ابتسم لها في عذوبة، وأخذ يحدِّثها كصديقة قديمة.

أصبحت تأتي كل يوم تقوم بطقوسها المحببة في تقبيله ألف قبلة، بينما ينظر إليها مفتونًا، ويحدثها لثوانٍ قبل أن يذهب إلى عمله.

أصبح لقاؤهما الصباحي القصير من ثوابت اليوم عند كليهما،الفراشة أثملها الحب و»صالح» افتتن بها، راق له أنها اختارته هو.

نشأت بينهما علاقة لم يعرف كيف يسميها أو يصفها أو حتى يحكي عنها لأحد؛ حتى لا يظنوا به الظنون.

في أحد الأيام، فتح باب الشرفة ودعاها لتدخل، طارت إلى جانبه حتى توقّف عند بلورة زجاجية بفتحة علوية، سألها «صالح»: إيه رأيك تعيشي جوه البلورة؟

ظنَّت أنه بذلك يريد الزواج منها، وأن تعيش معه إلى الأبد، وظلت ترقص في نشوة بالغة قبل أن تدخل إلى البلورة، أغلق «صالح» الفتحة بغطاء، ونظر لها من خلف الزجاج يودِّعها قبل أن يذهب.

ظلت طوال اليوم تفكر فيه تنتظر عودته في لهفة، لم يهمها أنها فقدت أثمن ما لديها.. فحبها له كان أثمن من حريتها.

كان «صالح» حين يعود يفتح لها الغطاء لتطير في البيت مثلما تريد، يجلسان سويًا في الشرفة، يحدِّثها، تقبِّله، وحين ينام تظل تراقبه لساعات دون ملل منتظرة شروقه، تستنشق رائحة جسده وتوقظه بقبلاتها ورفرفة أجنحتها في الصباح.. كانت في قمة سعادتها.

وفي يوم كان يجلسان في الشرفة وهي تقبِّل عينيه كعادتها، طلب منها أن تتوقف، وفرد راحة يده لتحطَّ فوقها ليحدثها في أمر مهم.

صرَّح لها بأنه سيتزوج بعد أيام قليلة، وستأتي زوجته لتعيش معه، لم تفهم كيف يتزوج وهي زوجته! كيف يخونها بهذه البساطة، ويصرِّح

بخيانته بهذه البساطة! كيف سيأتي بامرأة ثانية، وينام إلى جوارها كل ليلة!

كان قلبها يحترق مع كل كلمة يقولها، توقفت عن الاستماع، وهو يحاول أن يشرح لها كيف صار من الصعب استمرارها في المنزل، وأن زوجته لن تفهم علاقتهما، ولا أحد سيفهمها.. نظرت إليه نظرة أخيرة، وفردت جناحيها وذهبت.

obeikan.com

المحتويات

أم كلثوم تبيع مناديلها في المترو

جناح للنسيان

خراط البنات

شيشة وأغنية للست

مسافرة دون حقيبة

رقصة مع الرومي

صفحة بيضا

أنا لست ليلى

مباراة زوجية

ما يفعله الرجال

قبلة من فم البحر

فتى المارشميللو

السندباد فقد بساطه

obeikan.com

سبع حبات فول

استقالات ناعسة

فوق الكوبري

أحمر صاخب

حيرة الرمادي

عفريت قطة

أقوى رجل في العالم

رائحة الذكرى

قابل للكسر

قبل أن تستيقظ الشمس

دربوكة

كان فيه فراشة

obeikan.com